سلسلة الحي

2020
1.1.2020

غونزالو تافاريس

ترجمة: مهدي سليمان

Gonçalo M. Tavares

The Neighborhood

O Bairro, O Senhor Walser

السيد فالسر

غونزالو تافاريس

من سلسلة "الحي"

رواية قصيرة

ترجمة

مهدي سليمان

2018

السيد فالسر

غونزالو تافاريس

من سلسلة "الحي"

السيد فالسر / رواية قصيرة
غونزالو تافاريس

ترجمة: مهدي سليمان
تحرير: وليد الشايجي

الإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- أكتوبر 2018
978 - 9921 - 712 - 10 - 0 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2018/1122

Novella by: Gonçalo M. Tavares
O Bairro (Mr. Walser, The Neighborhood)
Published October 2012
By Texas Tech University Press
Translated From Portuguese by:
Roopanjali Roy
Translated from English by:
Mahdi A. Sulaiman
Edited by:
Waleed K. Al-Shaiji

حقوق هذه الترجمة ونشرها والاقتباس باللغة العربية محفوظة للناشر

هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر: @DarAlKhan_kw
انستغرام: daralkhan_kw

© Alkhan Publishing & Distribution
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مدمجة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
إن الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

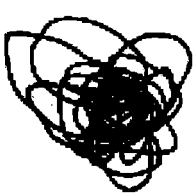

1

كان السيد فالسر في قمّة الفرح! فهذا المنزل الغافي وسط الشجيرات والنباتات البرية والتجلّيات الطبيعية الأخرى للطبيعة، كان كل ما استطاع أن يجنيَه عبر مسيرة حياة حافلة بالتجارب والمفاجآت. وقد استخدم في بنائه المهارات التقنية المتخصصة كافّة، التي لا تستطيع سوى حضارة عظيمة أن توفّرها. كان منزلًا عاديًا، ليس فيه شيء من علامات الرفاهية أو ما يدعو للتباهي؛ منزل متواضع، منزل السيد فالسر. الرجل الذي كان في تلك اللحظة بالذات وحيدًا في هذا العالم، ولكنه كان يرى في هذا المنزل الذي انتهى أخيرًا من بنائه فرصةً لكي يجد، بصريح العبارة، من يشاركه حياته أخيرًا. كم عدد السنوات التي صرفت في بنائه؟! لا شكّ أنها سنوات كثيرة.

حتى هاتيك اللحظة، كان انعدام وجود مكان مغلق ومريح؛ مكان يكون ملكًا حصريًا له وحده، عقبة كأداء في حياته. أمّا الآن، وهو محاط بتلك الرائحة المتسرّبة من كل حدْب وصوْب، رائحةِ الأشياء الجديدة المنبعثة من الخشب، رائحةِ الدهان على الجدران، وصوت الآلات التي كانت ضرورية لحياته المنزلية كرجل عزب يعيش بمفرده، فقد بدا كل شيء ممكنًا في تلك اللحظة في هذا

المنزل الجديد. فأمَّا السيد فالسر، فلم يكن منزله مجرد مكان غزاه البشر من الغابة المحيطة به؛ من المكان الذي بدا أنّ كل ما هو غير بشري قد ادعى امتلاكه له، وكأنه يخصّه وحده دون سواه، كان المنزل أيضًا مكانًا طبيعيًا مثاليًا ليبدأ الحديث مع غيره من الناس. لقد شعر بالفعل بالحاجة فقط للحديث مع الناس.

قطع السيد فالسر عهدًا على نفسه بأن يطالع دائمًا الجريدة اليومية. وكان مدركًا الإدراك كله بأن العزلة الجغرافية لمنزله تعني أساسًا المحافظة على الحضور المادي، وبطريقة معينة أيضًا الحضور الروحي، للأحداث البشرية الحيَّة في حياته. وكانت تلك مهمّة لا مناص منها، وممّا زاد الطينَ بَلَّةً أنّ السيد فالسر رفض منذ البداية أي إمكانية لتركيب أي أداة تقنية تتيح عرض الصور. الجريدة فقط كانت هي التقنية المسموح بها في المنزل؛ الجريدة ولا شيء سواها.

2

يقال بأنّ هذا الأمل، المتمثّل بإنشاء مكان شخصي، يمكن فيه التحدّث مع أشخاص آخرين، ومحاجّتهم، ومناقشة كبير الأفكار وصغيرها معهم، والقضايا التي تصبُّ في مصلحة الدول والقارّات والقضايا التي تصب فقط في مصلحة البلدة المجاورة، بالإضافة إلى هذا، القلق الكامن وراء جوّ معقول من الحياة الاجتماعية، يجب ألّا يعكّر صفوه الاستسلامُ الأرعنُ وغيرُ الواعي للضجيج الشنيع الذي تتركه المدينة. بل إنّ المسألة على النقيض من ذلك، إذْ لم يتم اختيار الموقع الذي قرَّر أن يبنيَ فيه منزله الجديد اختيارًا عشوائيًا. كان الموقع يبعد مسافة لا بأس بها عن أقرب حي له، وكان المنزل محاطًا، كما ذكرنا سابقًا، بطبيعة كثيفة لم يكن من السهل أبدًا بسببها القيام بجولات مشي انفرادية، وكذلك كان الحال بالنسبة للتشابك الذي لا يُخترق للأغصان التي بدت أحيانًا متمردة تمرّدًا مطلقًا، كانت أغصانًا شبه مخبولة. كما أنّ احتمال عبور أشياء أكبر من الإنسان كان احتمالًا بعيدًا. كان يمكن لعربة تسوق فحسب، مثلًا، أن تستخدم دربًا محتملًا واحدًا لكي تصل إلى منزل السيد فالسر. وذلك الدرب الذي لا ثاني له، لم يكن في أحسن الأحوال يتجاوز المترين. وكان من الضروري درءُ أخطار الغزو الصامت الرهيب للغابة باتجاه الدرب كمن يدرأ

خطرًا عن فتاة جميلة. بالطبع، ليس من الضرورة ردُّ الغزو كلَّ يوم، ولكن بالتأكيد كان يجب القيام بذلك مرة واحدة في الشهر على الأقل.

وعَدًّا من لحظة معينة وما تلاها، عندما كان الدرب يؤدي فقط إلى منزله، وحالما كان السيد فالسر يجتاز التقاطعات كافة التقاطعات، كان يحرص حرصًا شديدًا في ألَّا يعتمد على أحد سوى نفسه للذود عن الرقعة الصغيرة المنظمة من الأرض، التي بنيت عليها المواد الجميلة التي أفرزتها الحضارة الإنسانية. ومع من أن القوانين تنصّ نصًّا واضحًا على أنّ ذلك لا يقع ضمن نطاق مسؤوليته الشخصية، ولكنها مسؤولية المجتمع عامة، كان فالسر متآلفًا تآلفًا كافيًا -وإنْ لم يكن تآلفًا عميقًا- مع أساليب البشر في عدم إذكاء نار الأوهام المبالغ فيها. ولذا فقد اشترى فأسًا كبيرة نوعًا ما، أخفاها بطريقة آمنة (خبَّأها تقريبًا) في إحدى الغرف التي يصعب الدخول إليها في منزله. أمَّا لفالسر، فقد كانت الفأس لها اختراقًا لا مسوغ له للروح العدوانية إلى مكان -مكانه هو- شُيِّد أساسًا لجذب ما يناقض تلك الروح؛ مكان بني ليجذب المودة، ليجذب مصافحة بين شخصين يصلان إلى تفاهم بعد حديث مليء بالمحاججات؛، ليجذب عناق عاطفي عند الوداع، ومن المحتمل أنه سيجذب قبلة حانية، لقاءً مع خليلة روح السيد فالسر. وكان فالسر لطالما يداعبه هذا الأمل بحصول شيء من هذا القبيل، فلا أحد يعلم ما تخفيه الأيام.

3

كان فالسر في قمة الفرح! حالما فتح باب منزله شعر وكأنه يدخل إلى عالم آخر. وكأنها لم تكن مجرد حركة جسدية في المكان -مع أنهما لم تكونا سوى خطوتين خطاهما- بل إنها حركة في الزمان أيضًا، حركة بالغة العمق والأثر. من قدمه الواطئة في الخلف التي كانت ما لا تزال تعبق بشذى التراب، والشعور الذي تملَّكه بأنَّه محاط بالكائنات الحية التي لا نفْهَمُها ولا تفْهَمُنا فهمًا كاملًا -كائنات الغابة- وهو شعور غير منطقي على الإطلاق ولكنه شعور موجود مع كل ذلك؛ شعورٌ بأن المسافة الفاصلة بين القدم الواطئة في الخلف وتلك الواطئة في الأمام، وكانت قدماه قد تجاوزتا عتبة البيت، يجب ألا تقاس أبدًا بالسنتمترات، ولكن بالقرون، وربما بآلاف السنوات. عندما أغلق فالسر الباب خلفه، شعر بأنه كان يدير ظهره للهمجية البربرية (التي ولد من رحمها فعليًّا منذ مليارات السنين كائنٌ متميّز بذكاء غير عادي - ذلك البنَّاء الوحيد المعروف باسم الإنسان)، وكان فالسر مبحرًا بفكره في التأثيرات التي سبَّبها هذا الانفصال بين البشرية وبقية قوى الطبيعة؛ منزلٌ في وسط الغابة، كان ذلك غزوًا منطقيًا بالتأكيد.

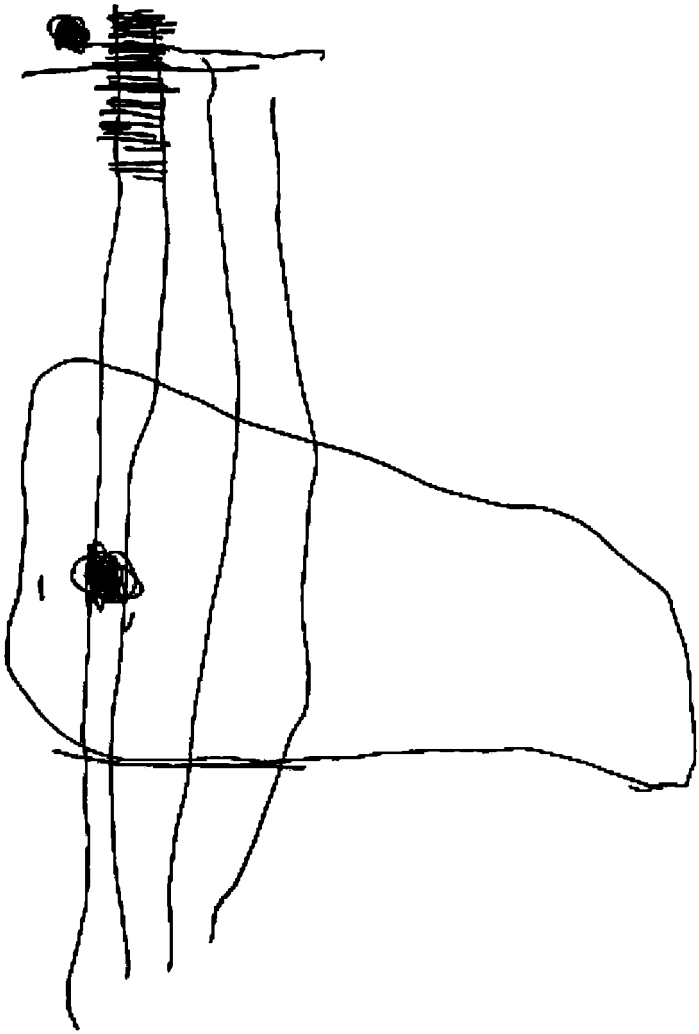

4

كانت رائحة المنزل الجديد تفوح في كل ركنٍ من أركانه! أرضية مصقولة أجود ما يكون الصقل، مصنوعةٌ من خشب فاتح الألوان امتدّت عبر أرجاء الغرف العديدة للمنزل. ويقال بأن المنزل يحتوي عددًا كبيرًا من الغرف التي نسي فالسر عددها؛ كان ذلك أمرًا مبالغًا فيه، بلا شكّ. ولكن كيف يمكن للمرء أن ينتقد شخصًا كان مسحورًا بآماله الخاصّة، شخصٌ حوَّل الجزء الأعظم من مساحة قطعة من الأرض لم يكن أحد يرغب في البناء عليها إلى منزل كبير وَفق ما استطاع إليه سبيلًا؟ من يعلم مكنونات المستقبل؟ فكَّر فالسر في اللحظات التي كان يخطّط فيها لإنشاء المزيد من الغرف؛ من يستطيع أن يخمِّن ما سيحصل أثناء حيواتنا؟ في الواقع، لم يشيِّد فالسر المنزلَ للشخص المنعزل الذي كانه في تلك اللحظة من الزمن. إن أردتم الصدق، ودون الخوض في التفاصيل، كان فالسر يعلِّق آمالًا عريضة على المستقبل.

5

ولكن لمثل هذه الآمال العريضة نتائجُها السيّئة. فقد كان السيد فالسر أحيانًا يدخل في غياهب الحيرة. فكان يذهب من غرفة لأخرى ومن ثم لأخرى غيرها. وجد صعوبةً أحيانًا في أن يجد شيئًا كان قد تركه خلف مكان ما. ولكن ذلك لم يزد إلا من فرحه بدلًا من أن يدخله في كهوف الإرباك! كان يشعر في تلك اللحظات كأنه طفل. وكانت تلك اللحظات التي كان يدرك فيها بأن وجوده الناضج برمته كلّه لم يضفِ عليه أيّ تصوّر للتحفّظ الرصين؛ نعم، كان قد بالغ في الأمر، ولكن ماذا عساه يفعل غير ذلك: فقد كان يشرع أشرعته لينطلق نحو بداية الحياة، وليس نحو نهايتها.

6

في المطبخ، وبدافعٍ من الفضول، مرَّر فالسر يده على الجدار الطُّوْبِي. كانت بعض قطع الطوب هنا وهناك ناتئةً أكثر من غيرها، في حين أنَّ بعض القطع الأخرى (بالطبع) راجعة كثيرًا للخلف، ولكن عمومًا كانت كلها على خط متساو نوعًا ما. قرب الأرضية، انتهت المربعات الصغيرة من الطوب نهاية مسالمة، دون الحاجة لقصها عند الزوايا، وكل ذلك لم يكن مجرد عمل يد محترفة، بل كان نتيجة للمهارات العقلية، والتخطيط، والمعرفة الدقيقة لكيفية إنهاء العمل في اللحظة التي بدأ فيها. لم يجرِ أي شيء على نحو ارتجالي؛ كان كل شيء، بلا شك، معمولًا كأحسن ما يكون العمل.

فتح فالسر الصنبور دون أن يستخدم كأس؛ فقد انحنى برقبته ليشرب كما كان يفعل أيام طفولته. شرب أعذبَ ماء استطاع أن يستدعيَه إلى ذاكرته. مسح بيده قطرات الماء المنسابة على ذقنه، وأطلق شبه صرخة من السرور المحض احتفاءً بتلك اللحظة، التي حلَّت أخيرًا؛ لحظة من العزلة الصارخة. لم يكن هناك حتى صوت إنسان واحد يمكن سماعه.

أما كعب جدار المنزل الذي امتدّ عبر كافة أرجائه فكان رائعًا! والأروع من ذلك الإحساس بالجمال الذي يتركه لدى الناظر! يا لَلفهم المبهر للأسلوب الذي جُمِع بهما اللون والشكل. بدا كعب الجدار وكأنه أُبْدِع على ذاك النحو منذ خلق الكون.

تنهَّد فالسر تنهيدة عميقة، وقد شعر بأنه عثر على شيء لن يستطيع التخلّي عنه ما كان فيه عروق تنبض بالحياة.

من المستحيل الحكم على تلك الحركة التي كانت أشبه ما تكون برقصة كان فالسر يغنِّج بها أثاث المنزل، وأدار بها قبضة الباب، وجلس على الكراسي المختلفة ونهض منها، وبالغ في الأمر مبالغة كبيرة. ثم انسلَّ في الأريكة الرمادية، أريكة لشخصين كانت، وهو يتخيّل أميرة قلبه؛ نصفه الآخر الجميل، تخيَّل الطريقة التي تزيح فيها شعرها عن وجهها، تخيل كيف كان سيقترب منها. كان المسرح جاهزًا للغرام. وما المسرح سوى بيته الجديد!

ثم جلس فالسر إلى طاولة غرفة الجلوس وكتب رسالة كان يعد كتابتها على درجة عالية من الأهمية لعدة سنوات، رسالة موجّهة إلى تيريزا إم. وعبْر سطور الرسالة التي خطَّها بيده، وصف لها المكان، بأسلوب متحفّظ، ودعاها، بكلمات انتقاها بعناية فائقة، لزيارته.

كانت كل كلمة في مكانها، كل حرف مكتوب وكأن التصميم ذاته للمنزل، ولأساساته، تعتمد كلها على الأشكال المتناغمة للكلمات. يا للتركيز الرهيب، تركيز السيد فالسر!

وأخيرًا، على أن عنوانه كان مكتوبًا بوضوح على الظرف، لم يتردد فالسر في إعادة كتابته مرة أخرى، ورسم أيضًا خريطة أولية في الرسالة، خريطة تحوي علامة (X) كدلالة على موقع المنزل. كان يريد أن يطمئن كل الاطمئنان بأنها -تيريزا التي يحب- ستكون قادرة على أن تجد طريقها إلى باب منزله الجديد دون أن تضل طريقها.

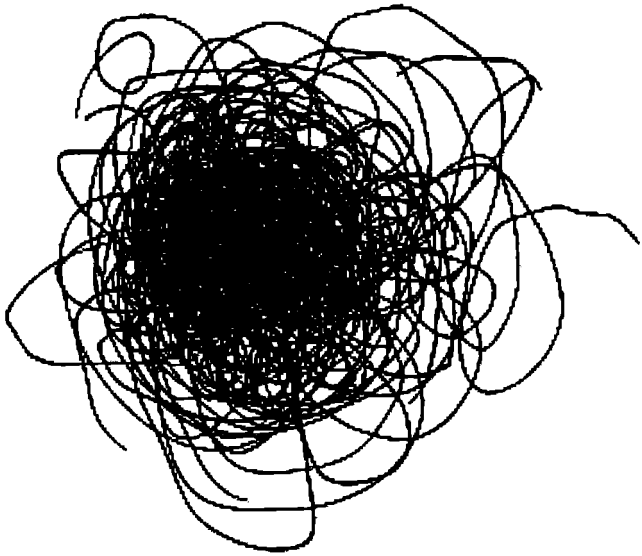

7

ولكن، فجأة، قرع أحدهم جرس الباب. من هناك ياترى؟ لا يمكن أن تكون هي، فيا ليتها تأتي وفالسر لا يزال يمسك بالرسالة في يده، يا ليتها تأتي...

لم يمضِ على دخول فالسر إلى منزله الجديد أكثر من ساعتين وها هو أول الزوار يقرع جرس الباب، لم يكن السيد فالسر قد نام في منزله بعد -ذلك النوم الأول وغير المريح نوعًا ما، فكَّر فالسر، في ظل الظروف المحيطة، فإن قرْع الجرس نحَّى جانبًا السعادة التي شعر بها جسده في مكانه الجديد- فلديه زائر الآن. قبل أن يتجه نحو الباب ليفتحه، وضع الرسالة في الظرف وأغلقه. فتح فالسر باب بيته الجديد ليرى رجلًا وصل وهو يلهث لهاث شخص لم يفرغ بعد من إتمام مهمة معينة.

تمتم فالسر:

- ما الأمر؟

قال الرجل:

- جئت لأصلح الصنبور في الحمام.

ومضى داخلًا إلى المنزل.

8

ربما أصابته حداثة المكان بالنشوة، ولكنَّه لم يلاحظ بالتأكيد وجود أي شيء غير مكتمل فيه، سواء أكان ذلك في الأجزاء المادية نوعًا ما التي شغلت كيانه الخاص، ما منحه إحساسًا بالاستقرار اشتركت فيه العضلات وإيقاعات الأنفاس، وروحٌ لا يمكن إنكار توقها للراحة التي لا يستطيع أحد أن يصفها بكلمات مكتوبة على الورق؛ أو في الأجزاء المحيطة بالمنزل. هناك صنبور لم يكتمل تركيبه؟ أوه، طيب، وما يدريه بتلك المسائل؟

مازح السيد فالسر الرجل محاولًا كسر الصمت:

- تعال، يا سيدي العزيز، لا تستعجل وأكمل عملك... ما من شيء يجب أن يترك نصف مكتمل.

لم يحصل فالسر بالمقابل سوى على تمتمة توافقه ما قال؛ تمتمة موارِبة.

9

بعد فكّه من الموضع الذي كان مثبتًا به ووضعه على الأرض، بدا الصنبور أشبه ما يكون بالذي كان يهنأ بلحظة من الراحة، وشعر فالسر برغبة مفاجئة بتوجيه الشكر للرجل من فوره، وحتى قبل أن ينهيَ ما جاء لأجله. بدا وكأن الصنبور كان في أمسّ الحاجة للحصول على ذلك القسط من الراحة، كان هذا هو التعبير الناجم عن التقاء الصنبور بالأرض، التقاءً هادئًا وأكيدًا. يمكن القول أن الصنبور والأرض كانا متحدين.

ممسكًا مفتاح التثبيت، حلَّ الرجل أولًا الصَّمُولة التي كانت تربط الصنبور بالأنبوب؛ ومن ثمَّ، وبعد أن فكَّ الصنبور، استخدم قليلًا من الشمع المعدني السائل. فكر فالسر أن الرجل لربما فعل ذلك لكي يحسن الآليات الداخلية؛ وبدا بعد ذلك أن كل شيء كان يشي بأن صنبورًا جديدًا سيطلّ برأسه من صندوق أدواته المستطيل الشكل، ولكن ذلك لم يحصل.

قال الرجل:

- من المحتمل أنّ هناك تسربًا للماء.

انحنى فالسر فوق حوض المجلى. حاول أقصى جهوده أن يتظاهر بإبداء اهتمامه الشديد، قدر استطاعته، بالمسألة التي تحدَّث عنها الرجل، ولكنه كان في حقيقة الأمر يفكر بشيء مختلف.

في الحقيقة، كان القلق يعتريه منتظرًا اللحظة التي يستطيع أن يجلس فيها مرة أخرى في غرفة الجلوس الجديدة في منزله، مستمتعًا بتلك الرائحة التي لا تنسى للدهان والطلاء والتي بدا أن لها بُعدًا محدَّدًا بعناية فائقة؛ لم يكن بُعدًا ماديًا، ولكنه بعدٌ تاريخي -رائحة بدت بطريقة معينة وكأنها المُعَادِل، في العالم المادي، للعبارة التي تبدأ بها الحكايات والروايات؛ عبارة «كان يا مكان» التي تسحر الأطفال. كان يريد أن يبدأ شيئًا ما، وبدا الأمر تقريبًا وكأن الرجل كان موشكًا على المباشرة بذلك الشيء. كانت نواياه طيبة بلا شكّ، ولكن عقبة مادية كأداء ظهرت الآن تحول بين فالسر والاستمتاع بحياته الجديدة. لم تكن تلك العقبة سوى السبَّاك نفسه.

بل زِدْ على ذلك أن فالسر لم يكن لديه أي إرهاصات لما كان يجري، لم يثر فيه شكل تلك الأنابيب أي شيء في أضعف الإيمان. ولم ينظر للأنابيب كعناصر من كيان أكبر، كيان يؤدي

وظيفة محددة، ولكنه كان يراها بصورة أشكال شبه مجرَّدة. ونظرًا لأنه لم يكن يفهم وظيفة كل عنصر، نظر فالسر إلى الأنابيب كما ينظر شخص مولع بالجَمال إلى لوحة لم يرها أحد من قبلُ -محاولًا أن يتبيّن فيها معنًى ما، ليس معنًى شموليًا، ولكنه معنى روحي (إن جاز لنا قول ذلك).

كان هناك وادٍ سحيقٌ بين أفكاره والأحداث الجارية حوله حتى إنه رأى حركات السبَّاك وكأنها حركات حاصلة في فلم سينمائي؛ وكأنَّ هناك شاشة عرض سينمائي بينه وبين السبَّاك، وأن جانبًا واحدًا فقط؛ الجانب الذي كان فيه فالسر، هو الجانب الحقيقي.

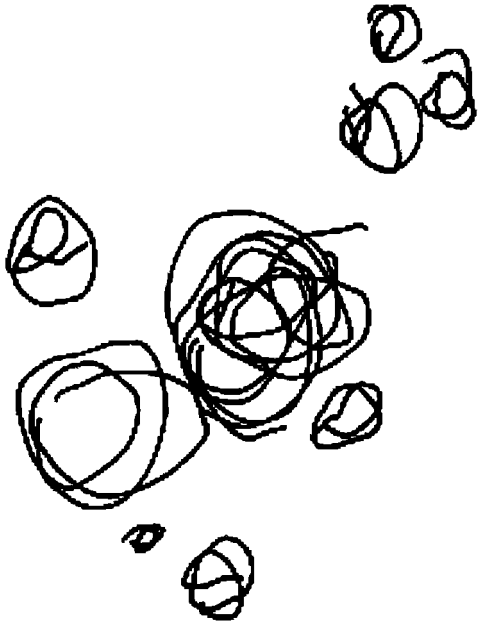

10

آنَ تلك اللحظة بالذات، كان فالسر مهتمًّا بتفصيل واحد لا غير ممّا كان يجري على تلك الشاشة: عدد الأشياء والأدوات التي أخرجها السبَّاك من صندوق أدواته وتركها متناثرة على الأرض أو فوق حوض المجلى. وكلما زاد عدد الأدوات المتناثرة، كلما زاد الوقت اللازم للسبَّاك ليغادر المنزل. قبل بضع دقائق، لاحظ فالسر وجود أدوات أكثر ممّا يراه الآن. ما من شكٍّ في ذلك، كانت حركات السبَّاك تشبه تراجع المدّ عن مياه المحيط، كانت انسحابًا، انسحابًا ترك علامات الرضا ترتسم على محيَّا فالسر. ظنّ فالسر بأن السبَّاك على وشك المغادرة.

في أثناء ذلك، قرع جرس الباب مرة أخرى.

انحنى فالسر انحناءة خفيفة في اعتذار مكتوم معبِّرًا عن رغبته بالذهاب لفتح الباب. سار مبتعدًا عن السبَّاك الذي لم يوقف ولو لثانية واحدة ما كان منكبًا عليه من عمل.

فتح فالسر الباب.

كان الطارق رجلًا آخر، يحمل في يديه صندوق عدته.

قال الرجل:

– هناك خلل في الألواح الخشبية لأرضية المنزل.

ابتسم فالسر، مومئًا برأسه، طالبًا من الرجل الدخول.

11

لم يكد يمرّ نصف ساعة إلّا وجرس الباب يقرع للمرة الثالثة.

كان الطارق رجلًا جاء ليصلح شيئًا ما في جدار إحدى غرف المنزل. بدا أنّ الأمر يتعلّق بشقّ في الجدار.

تبعه من فوره رجلٌ آخر. لم تتح الفرصة لفالسر حتى ليغلق الباب. كانت المشكلة التي جاء الرجل الرابع من أجلها هذه المرة إحدى النوافذ، لم تكن تغلق بالشكل المناسب. ابتعد فالسر عن الباب ليفسح للرجل المجال بالدخول وتبعه نحو النافذة. لم يرَ فالسر أي عطل في النافذة التي تحدَّث الرجل عن وجود مشكلة فيها، ولكن كان من الواضح بأن هذا الرجل الجديد من الفنيّين المتخصّصين، بغض النظر عن كونه ودودًا ومهذارًا.

قال الرجل بدهشة:

- معك حقٌّ أن تستخدم نوافذ ذات مصاريع، فهي أسهل النوافذ أثناء الفتح، ولكن لأن براغي التوصيل تنتشر على طول النافذة ومن ثم تنزلق لتدخل في ثلم، فإن ذلك أحيانًا يؤدي لتشكّل فجوة كبيرة هنا، أترى ذلك؟ ومن شأن ذلك أن يتسبّب في... يجب علي أن أخلع النافذة!

ربما كان فالسر على وشك الاعتراض على خلع النافذة، ومن يدري؟ ولكن صوت قرع جرس الباب أجبره على الإسراع نحو الباب.

من الضروري خلع النافذة (ومتى؟ في يومه الأول في المنزل الجديد)، يا لَسوء الطالع!

12

طوال الظهيرة، استمرّ وصول كل من هبَّ ودبَّ من الفنيين المحترفين. وما بين استقبالهم، الاستقبال الذي حاول أن يكون استقبالًا لطيفًا ما أمكنه ذلك، وبين متابعة الإصلاحات المختلفة التي كانت تجري على قدم وساق، يمكن القول إنّ فالسر نسي أن يفكِّر بنفسه.

فأما بالنسبة للمنزل، فلم يعد، رويدًا رويدًا، المنزل الذي كانه قبلًا، إذ بدا أن المشكلات كانت أسوأ بكثير ممّا ظن في بداية الأمر. خُلعَت نافذتان من إطاريهما واستبدلتا مؤقتًا بلوح من الورق المقوى الذي ألصق على الجدران باستخدام لاصق قوي.

قال أحدهم، مواسيًا السيد فالسر ومهدئًا من روعه:

- المنظر ليس جميلًا، ولكنه مؤقت فقط.

بعد ذلك بقليل، انحنى رجلان وربما ثلاثة على أرضية المنزل محاولين تعديل وضعية ألواحها التي كانت نافرة نحو الخارج «بسبب مشكلات تسرُّب في المياه» كما قالوا.

في الواقع، استطاع السيد فالسر، وهو يلقي نظرة خاطفة في أرجاء المنزل، أن يرى بأن ألواح الأرضية قد أزيلت من مواضعها في العديد من الغرف.

في أثناء ذلك، كان رجل ثانٍ متخصّص في السباكة يحاول فتح أنبوب صرف صحي مسدود، في حين كان السبَّاك الأول يحاول أن يوضّح للسيد فالسر بصبر وأناة بأنه ونظرًا لاستحالة إنهاء عمله في ذلك اليوم، فإنه من الضروري أن يقطع الماء عن المنزل لبضعة أيام على أقل تقدير.

بدورهم، قال الفنيّون الذين كانوا يعملون على إصلاح الجدران من خلال وضع مادة من السليلوز لسد الشقوق والفتحات، بأنه من المستحيل لهم أيضًا أن ينتهوا من إصلاحاتهم في ذلك اليوم. ووصف أحدهم الصعوبات التي يواجهونها في مهامهم وصفًا مسهبًا. يمكن تغطية الشقوق الصغيرة بالسليلوز وأوراق الصنفرة، أما الشقوق الأخرى فهي بحاجة إلى طبقة أو طبقتين إضافيتين من الدهان السميك الخشن المَلمَس.

وافق السيد فالسر. فمنزله الجديد ما زال بحاجة إلى بضعة إصلاحات صغيرة. فليكن ذلك إذًا. فما أدراه بتفاصيل البناء والمباني؟!

صاح أحدهم من الداخل، وبدا أنه كان يتوجّه بحديثه للسيد فالسر، ولكن لم يكن أحد ليقسم أغلظ الأيمان أنه كان فعلًا يخاطب السيد فالسر:

- يجب فحص الأسلاك الكهربائية فحصًا دقيقًا.

في الواقع، بدا الأمر، وكما قالوا هم، وكأنَّه صرخة تعلن نفيرًا عامًّا: كأنها صرخة لتنبيه حشدٍ من الجمهور وليس ساكن منزل جديد تعطَّلت بعض أجزائه.

في هذه الأثناء، كان ثلاثة من الفنّيين قد خلعوا النافذة وكانوا يحملون معهم أجزاء من الأريكة الرمادية اللون -الأريكة المخصصة لشخصين- لكي «يثبّتوا النوابض» كما قالوا له في حينه.

في تلك اللحظة، اجتاز رجلان بملامح عابسة متجهّمة الغرفة من طرفها نحو الطرف الآخر، وهما يغمغمان بكلمات غير مؤدبة اختلطت مع نفسَيهما اختلاطًا، محتجِّين بأن توصيل الأسلاك الكهربائية جرى بشكل خاطئ أساسًا.

سأل فالسر، مبتسمًا:

- لن تقوموا بقطع التيار الكهربائي عن المنزل، أليس كذلك؟

بدا واضحًا أنه لم يكن يخشى الجواب.

13

لم ينبرِ أحد للإجابة. كانوا منشغلين جميعًا ببعض الأعمال المفيدة هنا وهناك. اكتفى أحدُهم، وكان يتولّى مهمة إصلاح الأسلاك الكهربائية في المنزل، بتبادل الابتسامة مع فالسر. كانت ابتسامة صادرة عن زاوية شفتيه، وتدلّ على تفوقه الواضح في الأمور التقنية. لم تكن تلك الابتسامة العريضة المشوبة بالرضا لتصدر حتى عن مؤمن في وجه ملحدٍ من الملحدين أثناء خوضهم نقاشًا عن الإيمان.

في أثناء ذلك، انتشر عدد من السلالم المتنقّلة في أرجاء المنزل، وكان بعض الرجال يستبدلون ألواح السقف التي، وكما قالوا، كانت قد ألصقت بطريقة خاطئة على عوارض السقف.

أوضح أحد الرجال للسيد فالسر:

- ما كان ينبغي لها أن تثبَّت بمادة لاصقة أبدًا. يجب تثبيت العوارض إمّا بالمسامير أو باستخدام الطوب؛ ولكن ليس بمادة لاصقة؛ ويجب وضعها بعناية فائقة، مع ترك مسافة تصل لحوالي نصف متر تقريبًا على الأقل فيما بينها. هل هذا الظرف لك، أيمكنني أن أستخدمه؟

تردَّد السيد فالسر، لم تكن تحدوه الرغبة في أن يبدو وقحًا، فتلك الرسالة كانت...

ومضى الرجل يمارس عمله، مستخدمًا الظرف ليقيس المسافة الفاصلة بين العوارض، ثم قال:

- حسنًا الآن، كما ترى فالفجوة هنا أصغر بكثير، بالإضافة لذلك...

وتابع حديثه.

على كل حال، ولسوء الطالع، لم يكن السيد فالسر قادرًا على سماع بقية الشرح الذي قدَّمه بسبب جلبة عظيمة جلجلت في الجانب الآخر من المنزل.

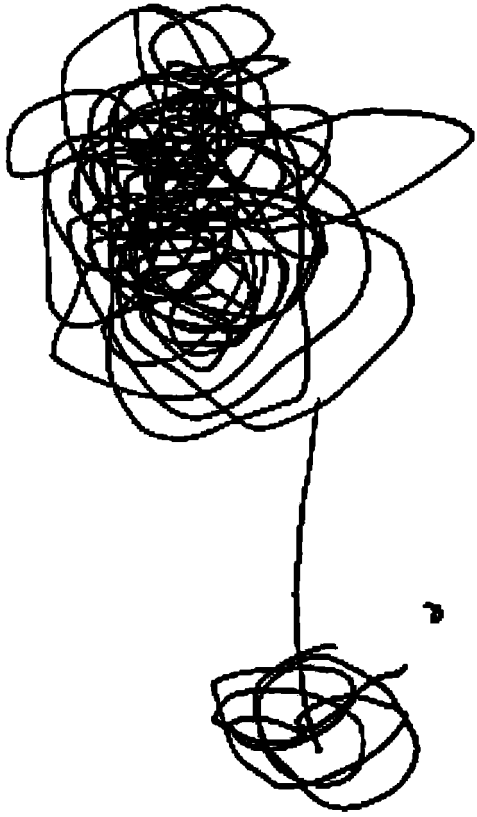

14

في الواقع، بدا له للوهلة الأولى أن هناك مبالغةً بعض الشيء في مسألة هدم جدار لمجرد أن الأسلاك الكهربائية التي تمر فيه كانت قد مددت بطريقة سيئة منذ البداية؛ مع أنه رجل عادي ولا خبرة لديه في المسائل التقنية. ولكن ما الذي يُدْريه بهذه المسائل؟ كرَّر فالسر هذا السؤال على نفسه. على كلّ حال، لم يكن بمقدوره التخلّص من شعور معيَّن بعدم الراحة؛ شعورٌ أحاط به إحاطة السوار بالمعصم لأول مرة في حياته، في ذلك اليوم البالغ الأهمية الذي كان يفتتح فيه منزله الجديد. كان يمكنهم على أقلّ تقدير أن يبلِغوه بذلك، فكَّر في قرارة نفسه. اللعنة كل اللعنة، إن هدم جدار وتسويته بالأرض لخطْبٌ جَلَلْ.

سأل فالسر وهو يقف على بعد بضعة أمتار من كومة من الطوب المهشَّم المتناثر على مرأى العين، وكانت الكومة تغطّي تقريبًا أرضية إحدى الغرف بكاملها.

- أكانت الأسلاك الكهربائية السبب في ذلك؟

أجاب أحد الرجال:

- لا، لا. هكذا أفضل بهذه الطريقة، فهي تسهِّل الحركة. كما أنها توفِّر شعورًا أكبر بالراحة، لقد وصلنا هاتين الغرفتين ببعض،

ولديك الآن مساحة أوسع.

- ولكن لماذا؟ قال فالْسَر وهو يلهث.

ولكن في الحال، جرَّدت ابتسامةُ الرجل وإصراره الودي اعتراضَ فالسر من الزخم الذي اكتسبه.

- يبدو المنزل أجمل بهذه الطريقة.

بكل الأحوال، ثَبُتَ استحالة الاستمرار في هذا الحديث؛ لأن أحدهم في الخارج طلب بإلحاح حضور السيد فالسر. اتجه هذا الأخير، الغارق في بحر كآبته غرقًا سرمديًا، نحو فِناء المنزل.

15

كانت العوارض الخشبية التي شكّلت السِقالة قد رُكِّبَت منذ بضع ساعات خلت. كانت مقطّعة إلى قطع متماثلة نوعًا ما، بعرض وطول أتاحا مساحة لأكثر من رجل واحد ليصعد فوقها، ولكنها كانت تتسع في أقصى طاقتها لشخصين فقط في الوقت نفسه، ولم يكن أي شخص عادي يستطيع الانضمام لرفيقه الأول كيفما اتفق، إذ يجب أن يكون متناسبًا من ناحية الوزن والعرض. كان فالسر، الذي قبل الطريقة التي يسير بموجبها العالم، يراقب السقالات الموضوعة في الساحة الخلفية لمنزله الجديد.

جهَّز العمال الممتلؤون حماسة، وهم الوحيدون من بين العمال الذين أثاروا إعجاب فالسر، هيكل السقالة في غضون ساعات وأصبح ممكنًا الصعود إلى الجزء الخلفي للمنزل. فعلوا ذلك بلا شكّ ليصلحوا بعض الأعطال الصغيرة هنا وهناك، مع من أنه لم يعرف ما هو الشيء الذي كانوا عاكفين على إصلاحه.

واقفًا خارج منزله، لم يكن بمقدرور فالسر سوى أن يشعر بالانبهار بالاهتمام البالغ الذي سعى به هؤلاء الرجال لإصلاح أعطال منزله الذي افتتحه منذ برهة قصيرة. ثم راقب هيكل السقالات المركَّبة لبضع لحظات -تلك العوارض المتعاقبة التي

غطت وجه حكمة خفيفة معينة موروثة في ذلك الخليط الذي يجمع ما بين المعدن والخشب.

كان المعدن بشكل أنابيب فارغة ظاهريًا -لا ماء فيها، ولا غاز، ولا مادة أخرى ذات فعالية اقتصادية واضحة- ولكنها مع ذلك كانت، أساسًا، أنابيب أتاحت القيام بأصعب المهام، مهمة تسلق سطح هذا المنزل دون أي خطر، أو على الأقل دون أي درجة مفرطة من الخطر.

بالطبع، كانت السقالة تزرع فيه أشواك الضيق والتبرّم، من الناحية الجمالية.

كل ما في الأمر أن منزله كان جديدًا. ليس جديدًا فحسب بمعنى أنه بناءه حديث العهد -لعنة الله على الشيطان، لم يمض بعد حتى يوم واحد على اكتمال بنائه- ولكن أيضًا من حيث المعنى الكامن في أن ريعان شباب شيء ما تحدده مسافة منطقية بين لحظة إنشائه ولحظة فنائه. فالمنزل ما زال أمامه مسيرة طويلة ليخدم أصحابه، عَدًا من ذلك الصباح -من اللحظة التي افتُتِح فيها بكل ركن فيه. بدا أنَّ السقالة كانت تنْذر، أو أنها كانت هي ذاتها نذيرًا، بإعلان خارجي عن ضعف في المنزل، عن شيء لم يكن يعمل، عن الحاجة للإصلاحات.

كانت مهنته، على كل حال، مهنة مختلفة كلّ الاختلاف عن

مهن هؤلاء. يقينًا أنّ كل خطوة من تلك الخطوات التي يقوم بها العمال تحمل في مضمامينها أهمية تقنية لم يكن ليجرؤ على المجادلة فيها؛ إذْ لطالما احترم أقدار مهنة أي فرد من البشر وميولها.

وأخيرًا، أطلَّ أحد الرجال من فوق السقالة.

سأل فالسر، وهو يشير إلى السقالة:

- لماذا تلك السقالة؟

أجاب الرجل:

- السقف. يوجد فجوة في السقف.

16

بدا أن هناك شق شقًا صغيرًا في العُلِّية.

قفل فالسر راجعًا إلى المنزل وصعد إلى الأعلى ليتأكّد من ذلك. كان ذلك المنزل منزله الجديد، ولكن اللعنة على هذا الحظّ، يوجد شقّ في السقف! قالوا إنه «شق صغير، بل صغير جدًّا». نعم، ولكنّه شقّ. كان ذاهبًا ليراه بأم عينيه.

عند وصوله العُلِّية صعد دكة خشبية أمسك بها من كلا طرفيها عاملان. فعلا ذلك تحسُّبًا من جهله الواضح بتلك الأمور.

قالا له، والأسف يبدو على محيَّاهما:

- تعال وانظر بنفسك!

واقفًا على الدكّة الخشبية، مدَّ فالسر ساقيه قدر ما استطاع، ومن ثم ذراعيه، وأخيرًا أصابع يديه. إنها فجوة! فجوة في سقف بيته الجديد. كان الأمر حقيقة لا مفرَّ منها.

ولكن بالطبع لم يكن الشقّ شقًا بمعنى أن شيئًا ما لم يكن في مكانه. بل على العكس من ذلك، على العكس تمامًا؛ ففي تلك اللحظة شعر فالسر بأن شيئًا كان خارجًا من هناك -ضربَتْه مادةٌ ما في رأسه أدق ما يكون الضرب. كطفل قليل الأدب، ضربهُ ذلك الشيء مرة، ومن ثم مرة أخرى، ثم اختفى في لمح البصر.

أين اختفى ذلك الشيء؟ كيف يمكن أن نعرف أين اختفى؟ ربما على سطح المنزل، في تلك الزاوية العمياء التي لن يكون بمقدور فالسر البتة أن يلحظ منها ما كان ذلك الشيء؟

في أثناء ذلك، ازداد ضرب المطارق شدَّة؛ إن جاز التعبير، ما بدا في البداية مجرد تأثير للنسيم الطائش، النسيم الهائم على غير هدى بعيدًا عن المجرى المنطقي لبوتقة الرياح التي ينتمي إليها. كان في تلك اللحظة، بالنسبة لفالسر، تهديدًا جليًا.

ولكن ما الشعور الذي خالجه حقًّا؟ هو الذي كان حتى لحظة مجيئهم في قمّة الصفاء، مستمتعًا بيومه الأول في منزله الجديد. يمكن وصف ما حصل، بسهولة، كما يلي: داهمه هاجسٌ هشٌّ، وثب إلى رأسه مصحوبًا بخاطرة لها القدر ذاته من الهشاشة، وربما هي إغواءٌ أكثر منها خاطرة، قادمة من الخارج، هاجسٌ أدخل في تلابيب فكره بلا شكّ ذلك الشقّ غير المتوقّع في سقف العُلِّية.

تسرّب الهاجس داخل المنزل، لمسَه، سحبَه، مومئًا له بفعل لم يتمكّن فالسر نفسه من تحديده بعد. لكنَّه فعلٌ شعر بأنه يتمركز في حقل الشرّ الواسع، الذي يغدو حال ولوجه داخل الإنسان في نهاية المطاف حقلًا لا نهاية له.

نهض من فوق الدكة الخشبية؛ لاحَتْ من وجوه أحد العمال ابتسامة عريضة غريبة.

وافق السيد فالسر قائلًا:

- نعم، يجب إغلاق هذه الفجوة.

17

كان أول عاملٍ يطلب الإذن بالنوم في منزل السيد فالسر تلك الليلة أحد الكهربائيين. إثر ذلك، طلب عدة عمال آخرين الطلب ذاته.

كان الليل قد جنّ. كانت مجموعة المنازل المستلقية هناك في الأسفل، وهي تشكِّل أقرب حي إلى المنزل، تبعد عدة كيلومترات، ناهيك إضافة إلى أن الطريق غير آمن أثناء الليل. وعلى أنّ فالسر أضناه التعب، فقد ركَّز كل ذرة من ذرات طاقته على أن يكون مضيافًا، فما كان منه إلّا وأحضر البطانيات، وجد مرتبتين للنوم، ووسائد. باختصار، بذل أقصى ما استطاع لكي يضمن بأن يشعر الجميع بالراحة في منزله. لا بل إنه شعر في لحظة معينة بأن أفضل ما يمكن القيام به هو أن يترك العمال على راحتهم ليتدبروا أمورهم بأنفسهم، قرر أن يفسح لهم المجال ليجد كل واحد منهم زاويةً ينعم فيها بالراحة. ثم ما لبثوا أن كفوا عن استئذانه في فعل أي شيء، بصرف النظر عن سماحه لهم ليتصرَّفوا على سجيَّتهم. حاول جاهدًا ألا يكترث لهذه المسألة التي أصبحت حقيقة واقعة. وربما يكون سبب ذلك أيضًا الأدوات والطوب والمواد العديدة الأخرى المنتشرة فوق أرجاء الأرضية، دون أن ننسى سُحُب الغبار

التي أحالت الرؤية مستحيلًا من المستحيلات. كان من الصعوبة بمكان التحرّك في المنزل، وواجه العديد من العمال الذين كانوا في الغرف البعيدة صعوبة في شق طريقهم نحو الغرفة التي كان فيها فالسر.

لم يعد في المكان متّسعٌ للآداب واللباقة.

فكّر فالسر في قرارة نفسه، دون أن يقمع إحساسه بالرغبة في الحماية والشعور بالأمان، وهو إحساس يعد صفة مميزة له:

- فليناموا جميعًا هنا. فالظلام دامس في الخارج!

كان يحمل شمعة مضيئة في يده؛ لأن التيار الكهربائي قد فصل عن المنزل بالفعل. حاول أن يتحاشى الاصطدام بالمعيقات المادية والبشرية العديدة المتناثرة في كافة أرجاء المكان كافة. في تلك اللحظة طرق أذنه شخيرٌ لواحد أو اثنين من العمّال النيام. حاول فالسر أن يجد طريقه نحو غرفته لكي يصل في نهاية الأمر إلى سريره. آن الآوان إذًا لينام أول مرة في منزله، النوم أول مرة في منزل جديد هو حدث مهم دائمًا.

بعد محاولات عديدة للعثور على غرفته، استسلم فالسر. كان لاستسلامه سببان، أولهما الظلام الدامس الذي لم تستطع حتى شمعته وبعض الشموع الأخرى المنتشرة في المنزل أن تبدِّده. والسبب الثاني هو بعض التغييرات المادية الإنشائية كالجدران المقطَّعة الأوصال والجدران الجديدة التي بدأ العمال بإنشائها في الأماكن التي كانت سابقًا تتيح الحركة في المنزل.

في تلك اللحظة كان السيد فالسر متعبًا جدًّا ولا شيء سوى ذلك. قرَّر أن يستلقي هناك بالذات، في مكان بدا وكأنه أحد ممرات المنزل، مع أنه لم يكن ضيّقًا جدًّا. ولأنَّه لم يتوقّع أن يتحوّل مسار الأحداث وَفق النسق الذي حصلت به، فقد أهمل إحضار معطفه من الصالة. كان المكان هناك باردًا جدًّا لأنَّ بعض النوافذ خُلِعَت من إطاراتها ولم تكن ألواح الورق المقوّى التي حلت محلّها كافية لدرء البرد.

في محاولة منه للتغلّب على إحراج معيّن، اقترب فالسر من أحد العمّال، وكان يشخر على بعد بضعة أمتار منه. بحركات بطيئة وحذرة سحب نحوه البطانية الصغيرة التي انزلقت من تلقاء ذاتها من فوق رجِلي العامل النائم، وبالتالي لم تعد تؤدّي غرضها في درء البرد عنه. أراحت مسألة انزلاق البطانية من تلقاء ذاتها ضميره.

كان السيد فالسر ملتفًّا التفافًا كاملًا بالبطانية ومستندًا على أحد الجدران؛ جدارٌ لاحظ بأنهم أزالوا كعبه سلفًا. بعد عناء ذلك اليوم الطويل، ومع أنَّ الظمأ أعياه، غطَّ فالسر أخيرًا في نومٍ ديْدَنُه السكينة، وهو يفكّر باليوم التالي. فقد كان يعلّق آمالًا عريضة على المستقبل.

عن سلسلة "الحي"

فيليب غراهام

أستاذ الكتابة الإبداعية ومحرر روائي في مجلة ناينث لِتَر
جامعة إلينوي، أوربانا-تشامبين، الولايات المتحدة الأمريكية
مؤلف كتاب أيها القمر: أقبل إلى الأرض: رسائل من لشبونة

إن الترجمة الإنكليزية لسلسلة روايات «الحي» هي أول الغيث العميم لأحد أهم أعمال الكاتب البرتغالي غونزالو تافاريس وتقديمه لجمهور القراء في الولايات المتحدة الأمريكية. ويعتبر تافاريس أحد أعظم الكتاب البرتغاليين الأحياء. وبالرغم من بلوغه الأربعين منذ مدة وجيزة، فقد بنى لنفسه مكانة في تاريخ الأدب البرتغالي. ورغم أنه لا يزال غير معروفٍ نسبيًا في أمريكا الشمالية (حيث نشرت دار دولكي أركايف روايته القدس عام 2009)، إلَّا أنَّ أعماله حصدت عددًا كبيرًا من الجوائز، ناهيك عن ترجمتها وحصولها على الثناء والتقدير في أكثر من خمسة وأربعين بلدًا من بينها إنكلترا وإسبانيا وإيطاليا والهند وبولندا وفرنسا وكوريا الجنوبية واليونان وألمانيا والأرجنتين. وتحوَّلت أعماله في بلده البرتغال إلى مسرحيات وترانيم دينية وعروض أوبرالية.

كان أول عهدي بالتعرف على أعمال تافاريس أثناء حضوري

المؤتمر الدولي التاسع للقصة القصيرة الذي عقد في العاصمة البرتغالية لشبونة في شهر يونيو من سنة 2006. كان الجميع يلهج باسم تافاريس في المؤتمر، فقد فاز بجائزة خوسيه ساراماغو الأدبية في العام الفائت وذلك عن روايته الثالثة «القدس» - كما أن ساراماغو نفسه، وهو الحاصل على جائزة نوبل للآداب، لم يتورَّع أبدًا عن كيل المديح والثناء لتافاريس حين قال: «إن رواية «القدس» رواية عظيمة، وتستحق بجدارة أن تنال مكانتها ضمن الأعمال العظيمة في الأدب الغربي. قد لا يستطيع أي شخص كان أن يكتب بمثل تلك الجودة والبراعة التي يكتب بها تافاريس وهو في سن الخامسة والثلاثين. لذا أشعر برغبتي في لكمه في وجهه غيرةً وغبطة!»

وعندما حضرتُ الأمسية التي قدَّم فيها تافاريس قراءات من قصصه في مؤتمر لشبونة الأدبي، استمتعت للمرة الأولى لمختارات من السلسلة الروائية المعروفة بالبرتغالية بعنوان (Os Senhores) والتي ترجمت إلى الإنكليزية بعنوان (The Misters) أي «السادة»؛ وهي مجموعة الروايات القصيرة التي تشكل بمجموعها سلسلة كتاب «الحي». وقد أدهشني على الفور الإيجاز والجزالة اللذان يميِّزان أسلوبه الكتابي. وقبل توجهي للبرتغال لحضور فعاليات المؤتمر المذكور، طلبتْ مني هيئة

تحرير المجلة الأدبية المعروفة باسم هنْغَر ماونتن أن أساهم في إعداد ملف خاص عن الأدب الروائي البرتغالي المعاصر يضم بين دفتيه الكتَّاب الذين صادفتُهم في المؤتمر. ولهذا لجأت إلى أسهل قرار يمكن للمرء أن يتخذه بأن ضمَّنتُ ذلك الملف خمس قصص قصيرة من كتاب السيد هنري وست قصص أخرى من كتاب السيد بريشت وهما من ضمن سلسلة «الحي» التي ألَّفها تافاريس. وباعتباري المحرر الأدبي لمجلة ناينث لِتَر التي تعني بشؤون الأدب والفن، فقد قمت أيضًا باختيار خمسة أعمال مختارة للنشر من رواية السيد فاليري. وهذه النصوص المحدودة تمثل الانطلاقة الأولى لظهور أعمال تافاريس باللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية. أما الآن، وفي ظل هذه الترجمة الضخمة التي بين أيدينا، والصادرة عن مطبعة جامعة تكساس التقنية، فستتاح لجمهور القرَّاء في أمريكا الفرصة للاستمتاع ببراعة العالم الخيالي الفريد الذي يصوغه تافاريس من خلال ولادة هذا النص الأنيق الذي خطت ترجمته الإنكليزية البديعة أنامل المترجمة روبانجالي روي.

وقد يكون خليق بنا أن نعرِّف القارئ الذي لم يسبق له الاطلاع على أعمال تافاريس الكاملة من خلال مناقشة الرسومات التي أبدعتها زوجة تافاريس وشريكته في الأعمال الأدبية لمدة طويلة،

الفنانة راتشيل كايانو، وخصوصًا اللوحة التي رسمتها التي تمثِّل خريطة الحي، حيث تظهر فيها الشوارع الضيقة والمباني المتلاصقة التي تمثِّل حيًا تقليديًا في مدينة لشبونة. وقد رسمتْ كايانو في خريطتها التي أبدعتها في الطبعات الأولى من سلسلة «الحي» أربع شخصيات فقط من سكان الحي وهم السيد فاليري والسيد هنري والسيد بريشت والسيد خواروز، مع العديد من الشقق المحيطة بهم وهي فارغة من ساكنيها. ومع اتساع رقعة مشروع تافاريس الروائي، أضاف إلى الحي كل من السيد كالفينو والسيد كراوس ومن ثم السيد فالْسِر. وحتى تاريخ كتابة هذه السطور ينتشر، لحسن الحظ، على الخريطة التي رسمتها كايانو تسعة وثلاثون اسمًا. وبالرغم من أن عشرة من هؤلاء السادة فقط قد ظهروا حتى الآن بشكل كتب مستقلة (وبعضها ما يزال بانتظار ترجمته للإنكليزية)، فهي تمثِّل بمكنوناتها النمو المتواصل لسلسلة «الحي» في المستقبل.

أما بالنسبة لرسومات كايانو الموجودة في داخل كتب السلسلة، فتعكس أساليبها الفنية المتبدلة ما يضمه كل كتاب من كتب السلسلة من ذلك الجمع الفريد بين الغرائبية الطريفة والجدية. ويبدو العديد من تلك الرسومات بحق مرتبطًا ارتباطًا عضويًا معقدًا بكل قصة على حدة، ومن أمثلة ذلك الحزن الرهيف

لدُرْج خزانة السيد خواروز المملوء بالفراغ؛ أو الخطوط الإضافية للقبعة المستديرة التي يعتمرها السيد فاليري؛ أو الظلال العريضة المحيِّرة لمكتب المدير في قصة السيد كراوس؛ أو الخربشات الجنونية التي تخطط التفكيك الودي للمنزل الريفي للسيد فالْسِر.

ولا بدَّ أن قارئ هذه المقدمة قد لاحظ بالتأكيد أن كافة السادة يستدعون في الذاكرة شخصيات أدبية بارزة. إذ تمارس تلك الشخصيات أدوارها الروائية، إلى حد ما، في نطاق ما نعتقد أننا نعرفه من معلومات عن تلك القامات الأدبية، والأهم من ذلك ما نعرفه عن كتاباتهم. فالسيد كالفينو بالطبع هو النسخة الأدبية عن كاتب الحكايات الإيطالي إتالو كالفينو؛ أما السيد فاليري ففيه تلميح للشاعر والناقد الفرنسي بول فاليري؛ أما السيد خواروز فهو نسخة ما من الشاعر الأرجنتيني روبرتو خواروز؛ والسيد فالْسِر عاشق العزلة (إذْ قد يلاحظ المرء بأن بيته يقع على مسافة بعيدة من المباني السكنية الأخرى الموجودة على خريطة الحي التي رسمتها كَايانو) يمثل روبرت فالْسِر، الكاتب السويسري المأزوم نفسيًا الذي أدمن السير وحيدًا لمسافات طويلة؛ وتعكس قصص السيد كراوس النقمة السياسية واللغوية للكاتب النمساوي كارل كرواس، أما النفس المخمورة للسيد هنري فهي شذرة منبثقة من شخصية الكاتب هنري ميشو الذي ينتمي للسورياليين الجدد والذي عكف

على تجريب شتى أنواع المخدرات أملًا منه في اكتشاف العوالم الداخلية للإنسان. ورغم ما سقناه من إرهاصات لتشابه شخصيات الحي مع شخصيات أدبية حقيقية، فإن كتب سلسلة «الحي» لا تقتصر على إرسال رسالة مباشرة عن تلك الإرهاصات، ولكنها بدلًا من ذلك تفضي بنا إلى مآلات واحتمالات مختلفة - منها الشخصي ومنها الفلسفي - الناتجة عن المعرفة الأساسية بهؤلاء الكتَّاب الذين شكَّلوا مصدر إلهام لتافاريس. وستسيطر مشاعر الحبور والسرور بلا شك على القرَّاء الذين يعرفون عز المعرفة أعمال الشاعر الأرجنتيني روبرتو خواروز من خلال الإشارة الخفية التي يلمِّح بها تافاريس لما يسمى «بالشعر العمودي» الذي يميِّز ذلك الشاعر عندما يقول السيد خواروز في حكاية «الحي» (حيث يخاف السيد خواروز من صعود السلالم النقَّالة): «إذا ما أخذنا في الحسبان بأن السقوط ليس سوى تغيير بسيط في الموقع؛ أو تغيير في وضعية الجسم على طول مسار السقوط العمودي، فحينها لن يكون السقوط مرعبًا جدًا». بيدَ أن هذه المعرفة الداخلية ليست ضرورية للاستمتاع بالفصل الذي عنوانه «السقوط» في رواية السيد جواروز. والشيء بالشيء يذكر، إذ لا نحتاج لأن يعرف بأن كارل كراوس كان يعتقد بأن سوء استخدام اللغة يعادل سوء استخدام السلطة لكي نستمتع بتلاعب المدير بالكلمات في

رواية السيد كراوس، حيث يتبادل المدير الشديد الحرص الحوار التالي مع أحد مساعديه:

«لا يكفي الحصول على آراء الآخرين؛ بل من الضروري تفسير تلك الآراء. فحتى عندما يرسمون مجرد إشارة صليب، يجب أن نعرف ماذا يقصدون؟ ينبغي لكل رأي شخصي أن يفسَّر باستخدام عدسة مكبرة، وأنَّى لأحدٍ أن يقوم بذلك غير أولي العلم وأهل الاختصاص.

«أولئك الذين...؟»

«أولئك الذين أسميهم: أهل الاختصاص في ذاتي البشرية.»

وهكذا لا نتفاجئ بأن المدير يعلن على الفور بأن أفضل هؤلاء المختصين في النفس البشرية هو الشخص نفسه، إذ نجده يقول: «إنه أنا، نعم أنا! أنا من سيفسر تفسيرًا موضوعيًا الآراء غير الموضوعية التي يتبناها الآخرون.»

وفي حين أن سخرية معيَّنة، بارعة المواربة، مشوبة بالمرارة كهذا المثال الذي ذكرناه آنفًا، تخلق جوًا يميز كتب سلسلة «الحي»، فهي سخرية دائمًا ما تقترن مع حكمة فلسفية وجدية عميقة في مدلولاتها. ويمكن قراءة قصص روايات سلسلة «الحي» بحد ذاتها قراءة سريعة، ولكنها تظل بحاجة إلى اهتمام وقراءة ثانية بنسق أقل بطئًا. وفي العديد من المواضع، ترشد تلك الروايات

القارئ إلى سبل قراءتها. فالحس الفكاهي يحثنا على الغور في القراءة، ولكننا ما نلبث أن نفهم رويدًا رويدًا بأن ذلك الحس الفكاهي يشبه ألغازًا لا حلول لها تسيطر على العالم؛ حس فكاهي تُقدَّم فيه الحماقات الشخصية والمنطقية والسياسية بطريقة تبدو فيها وكأنها تفكك ذاتها، مع الاحتفاظ بشكل مذهل ببنيانها قائمًا متينًا. إذ نرى بأن السيد خواروز، الذي يرى أن التفكير أرفع شأنًا من الانخراط الحسي في العالم، يمتلك دُرْج خزانة أثيرٌ على قلبه وقد ملأه بالفراغ، بسبب الإحباط المسيطر على زوجته الصبورة. أما السيد فاليري فهو قصير القامة، ولكن ونظرًا لأنه يقفز كثيرًا، كان بإمكانه أن يزعم قائلًا «أنا ككل الرجال الطوال القامة، باستثناء أنني طويل لمدة زمنية أقصر منهم».

وتتجلى عبقرية كتاب تافارايس في أنه يُسْبِغُ على أفكاره العميقة أسلوبًا سهلًا جزلًا بطريقة موارِبة، مما يمكِّنه من نيل رضا وإعجاب جمهور غفير من القرَّاء. وللدلالة على ذلك دعوني أروي لكم القصة التالية كحجة على ما أقول. فقد أُغْرِمت ابنتي حنَّا، التي كانت في الحادية عشرة من عمرها عندما أقمتُ وعائلتي لمدة سنة واحدة في البرتغال، بكتابات تافاريس. وكان تافاريس في غاية اللطف عندما وافق على قراءة مجموعة من كتاباته في المدرسة البرتغالية حيث كانت تدرس، وعندما وصل إلى المدرسة قدَّم

له طلاب الصف السادس عرضًا كمفاجأة له، حيث قاموا بتقديم أداء تمثيلي مفعم بالحماس والحيوية للعديد من القصص الواردة في سلسلة «الحي». وقد ذهلتُ ذهولًا عظيمًا بالتأثير الذي تركته كتاباته على الصغار قبل الكبار، رغم عدم معرفتهم علم اليقين بالشخوص الحقيقة التي يرمز إليها كل من السيد خواروز أو فاليري أو غيرهم من شخصيات المجموعة.

وكما يرى معظم النقاد، يعدُّ التخيل المدهش لتافاريس من خلال التقمص البلاغي لشخصيات عمله لبعضٍ من أعظم الكتَّاب ممن ينتمون إلى عصر الحداثة وما بعدها مشروعًا متأصلًا أصالة ثابتة الجذور. ومع ذلك يمكن القول بأن السيدين «الحقيقيين» فاليري وهنري كانا الملهمين الأساسيين لسلسلة روايات «الحي» التي ما فتئ مبدعها يرفدها بشخصيات جديدة؛ دون أن ننسى أيضًا أنهما ملهمين أيضًا، بشكل ينطوي على قدر من السخرية، من خلال شخصيتيهما اللتين ابتكرهما تافاريس ابتكارًا. وإذا ما تأملنا الشخصية الرئيسة في رواية السيد تيست، وهي الرواية الوحيدة التي كتبها بول فاليري، نجد أن السيد تيست رجل لطيف على درجة مفرطة من الخجل وهو يحاول العيش في ظلال مبادئه الفكرية، وكذلك شخصية بلوم التي أبدعها هنري ميشو في مجموعته الشعرية النثرية المسمَّاة ريشة، سنجد أن

هاتين الشخصيتين تشتركان في الكثير من النقاط مع شخصيتي السيد هنري وفاليري الأنيقتين في «الحي». فهما شخصيتان مضطربتان، ومع ذلك تتحليان بالحكمة بشكل يثير الدهشة. فعلى سبيل المثال، نجد في إحدى القصائد النثرية لميشو، وعنوانها «رجل مغلوب على أمره» أن بلوم يستيقظ ليكتشف بأن جدران بيته اختفت، بيد أن ذلك الأمر لا يترك فيه سوى أثر لا يكاد يذكر إذْ ما يلبث أن يتابع نومه. وعندما يستيقظ مرة أخرى، يمر قطار فوقه وفوق زوجته، ولكنه يخلد للنوم على ذات المنوال الآنف الذكر. وعند استيقاظه مرة أخرى، يكتشف بأن أجزاءً من جسد زوجته لا تزال هناك وقد تركها القطار العابر، ولكن النعاس يغلب جفونه مرة أخرى. إن رباطة الجأش (الناعسة تلك) التي يواجه بها بلوم الكوارث التي تحصل في التناقض الصارخ بين الحلم وعوالم اليقظة تحيلنا إلى قصة «الحلم الأول للسيد كالفينو» في سلسلة الحي، إذ يتمكن السيد كالفينو أثناء سقوطه من بناء ارتفاعه ثلاثين طابقًا من ربط أنشوطة حذائه وربطة عنقه قبل لحظات من «ملامسة الأرض سليمًا معافى». أما في رواية السيد هنري فنجد أن هنري في قصة «النظرية» يقدِّم قفزات منطقية ربما تكون مصدر فخر للسيد تيست، وها أنذا أسوق لكم ذلك المقطع كاملًا من القصة المذكورة:

قال السيد هنري:

- اخترع الهاتف ليتسنى للناس التحدث مع بعضهم من مسافات بعيدة. واخترع الهاتف ليبعد الناس عن بعضهم البعض، وشأنه في ذلك شأن الطائرات. فقد اخترعت الطائرات بحيث يستطيع الناس العيش بعيدين عن بعضهم. لو لم توجد الهواتف والطائرات لعاش الناس معًا.

وتابع قائلًا:

- هذه مجرد نظرية، ولكن فكروا بها، يا أصدقائي. ما يحتاج المرء القيام به هو أن يفكر في اللحظة المناسبة التي لا يتوقعها الناس. تلك هي الطريقة التي تفاجؤونهم بها.

وقد يكون السطران الأخيران تعريفًا عمليا للنهج الذي يتبعه تافاريس القائم على إرباك القارئ في كل صفحة من صفحات كتاب «الحي».

وأيًا تكن تأثيراته، فقد شيَّد غونزالو تافاريس لنفسه بنيانًا خياليًا لا يشبه أبدًا أي بنيان لأي كاتب برتغالي آخر. ومع ذلك تبقى حساسيته الأدبية متجذرة تجذرًا عميقًا في ثقافة بلده، ناهيك عن تجذرها خصوصًا في الحب والاحترام اللَّذين يكنُّهما للكتَّاب. إن أسماء الشعراء والكتاب، المعاصرين منهم والكلاسيكيين، غالبًا ما يتم تقديمها بشكل أسئلة في برامج المسابقات التلفزيونية في

البرتغال. كما تهتم الصحف والمجلات بتقديم محفزات لشراء نسخها بشكل عملات معدنية قابلة للجمع تحفر عليها وجوه المؤلفين، أو تصدر طبعات بعدد نسخ محدود من آخر الأعمال الشعرية لشاعر من الشعراء. عندما أقمتُ في لشبونة كان أشهر برنامج مسابقات تلفزيونية هو برنامج تلفزيون الواقع المسمى (A Bella e o Mestre) حيث أن ثلاثة من أعضاء لجنة التحكيم البالغ عددهم أربعة هم من الكتَّاب. وقد أصبح شاعر القرن العشرين العظيم فرناندو بيسوا بعد وفاته أشبه ما يكون ببطل قومي في البرتغال، حيث استمرت طبعات جديدة من أعماله في الظهور عدا عن انتشار صوره على القمصان وأكواب القهوة وحمَّالات المفاتيح والدفاتر وفواصل الكتب وقطع البورسلان المزخرف، لا بلْ إن صوره تعدَّت كل تلك الأشياء حتى رسمها البعض على لوحات التنبيه بعدم الإزعاج التي تعلَّق على أبواب الغرف والتي احتوت على اقتباسات من شعره (ويوجد واحدة منها على باب غرفتي) يقول فيها: «إن شاء الله، سأنام، لأن عملًا أدبيًا جديدًا يشهد مخاضه الآن!»

ولكن بيسوا ليس الكاتب البرتغالي الوحيد الذي لا يزال الناس يحيون إرثه بكل حب واحترام. فعندما توفي الشاعر والفنان السريالي ماريو سيزاريني في شهر نوفمبر من عام 2006

خصصت كل الصحف الصادرة في العاصمة لشبونة صفحاتها الأولى وكامل الصفحات الست أو السبع التي تلتها على الأقل للحديث عن حياته وأعماله. ونالت الشاعرة فياما هاس بايس برناداو على الاهتمام نفسه عند وفاتها بعد ذلك ببضعة أشهر. وأينما وجهت ناظريك في لشبونة، تجد أن الشوارع والمنتزهات قد سميت بأسماء روائيين وشعراء وصحفيين؛ كما تنتصب شامخةً تماثيل أبرز الكتَّاب البرتغاليين في منتصف الساحات العامة وعلى جنبات الطرق الرئيسة. وحتى المدن الصغيرة لا تخلو من تماثيل لشعراء محليين أقل شهرة ومكانة.

هناك سبب لهذا التقليد المتوارث من الإعجاب بالأدب؛ سببٌ ذو جذور ثقافية وتاريخية متأصلة، حيث يقوم جزء كبير من الهوية الوطنية البرتغالية على المآثر غير المسبوقة التي أقدمت عليها تلك البلاد من خلال امتطاء صهوة الكشوفات الجغرافية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. فالاكتشافات العظيمة التي أدت لنشوء الإمبراطورية البرتغالية التئمت مع فجر انبثاق أوائل الأعمال الأدبية البرتغالية الحديثة، ولا يقتصر ذلك فحسب على أعمال لويس دي كامويس الذي كان هو ذاته مستكشفًا أيضًا، حيث احتفى عمله الأدبي الرئيس المتمثل بالقصيدة الملحمية اللوسياد باكتشافات فاسكو دي غاما، ولكننا نجد أثر ذلك أيضًا في

المسرحيات التي تموج بالشك التي ألَّفها الكاتب المسرحي جيل فيسنتي. وفي حين تجري تلك المغامرات التي جابت أرجاء الكرة الأرضية في الماضي البعيد، فأنا أعتقد بأن البرتغاليين يعتبرون أن كتَّابهم يتابعون مسيرة المستكشفين وإرثهم، رغم أنه يأخذ الآن منحى آخر؛ فهم مكتشفون لا يشق لهم غبار للإمبراطوريات الداخلية لبني الإنسان.

فلا عجب إذن من احتضان البرتغاليين لأعمال غونزالو تافاريس، التي غالبًا ما تحتفي احتفاءً هزليًا رشيقًا بالحالات الذهنية والفكرية لكتَّاب مشهورين. ويعد كتاب المكتبة أول ما أينع من أعمال تافاريس الأدبية، إذ نشر في عام 2004، وهو تاريخ قريب من تاريخ ظهور أولى روايات سلسلة «الحي». يضم كتاب «المكتبة» في صفحاته زهاء ثلاثمائة قصيدة نثرية قصيرة، تتناول كل قصيدة منها كاتبًا مختلفًا، من الكاتب الأرجنتيني أدولفو بيوي كاساريس إلى الأديب الصيني زانغ كيجيو. ويلجأ تافاريس في كتاب المكتبة لاستخدام أسلوب كتابي يشبه ذلك المستخدم في سلسلة كتاب «الحي»، ويتجلى ذلك من خلال خلق فسحة مكانية يمكن من خلالها لخيال الكاتب الذي تتحدث عنه القصيدة أن يصول ويجول. تشبه تلك القصائد النثرية البذور الصغيرة، وتشبه موضوعاتها الموضوعات التي تناولتها قصص سلسلة

«الحي» الموجودة في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، في حين تُرِكت شخصيات أدبية أخرى مثل ميشيما وفرجينيا وولف (آن لنا أن نفرح لظهور شخصية أدبية نسائية أخيرًا!) وغوغول لتكون إضافات للأجزاء القادمة المتوقَّعة من سلسلة «الحي».

ويبوح لنا كتاب «المكتبة» بمضامينه وكأنه نزهة في الشطآن المتنوعة للتأثير الذي يجمع بين أعمال تافاريس وجوهر مكتبته الشخصية - ولا نقصد المكتبة برفوفها وكتبها، بل تلك المكتبة القابعة داخل رأسه. وهذا هو السر، برأيي، الذي يربط تافاريس ارتباطًا لا تنفصم عراه مع القارئ، السر الذي يموج في العوالم الدائمة الاتساع داخل الحي. ففي كل واحد منا مكتبة داخلية؛ في كل واحد منا ذلك الصخب الداخلي للخيالات المختلفة للكتَّاب الذين نحبهم ونعجب بهم؛ في كل واحد منا تلك المكتبة التي تحتفظ في سراديبها بجبروت العوالم الخيالية لذلك الصنف من الكتاب كلما تقدم بنا العمر وتلاشت معه التفاصيل الدقيقة لكتبنا المفضلة. يبقى جبروت الخيال، إذن، ويتحول إلى حي شخصي بكل ما في الكلمة من معنى. عندما نزور حي تافاريس، بمبانيه وبيوته المبنية من الكتب، فإننا نزور أيضًا نسخة عن ذواتنا.

وقد ورد عن جوزيه ساراماغو، الذي صرَّح ذات مرة بكل خفة ودعابة بأنه يرغب بضرب تافاريس بدافع الغيرة منه، أنه قال، وإنْ

بأسلوب أقل تهديدًا: «لقد اقتحم غونزالو تافاريس المشهد الأدبي البرتغالي مدججًا بخيال أصيل كل الأصالة، وقد تخطَّى به كل الحدود التقليدية للخيال. وأتوقع أنه سيفوز بجائزة نوبل للآداب خلال مدة ثلاثين عامًا، أو ربما قبل ذلك، وأنا على يقين من أن نبوءتي ستتحقق. الشيء الوحيد الذي يؤسفني هو أنني لن أكون هناك لأبارك له فوزه وأعانقه عناق المهنئين».

هذا هو حال الدنيا إذًا، فما من أحد يعلم المخبوء في المستقبل. كل ما نعرفه الآن، للأسف، هو أن ساراماغو، الذي رحل عن عالمنا في عام 2010، لن تتاح له الفرصة لعناق تافاريس وتهنئته بالفوز بجائزة نوبل فيما لو فاز بها. وإنْ حصل وفاز تافاريس بالجائزة، فإن إنجازه المتمثل في النمو السكاني المطرد للحي الذي أنشأه في عمله الأدبي سيكون عاملًا مهمًا في منحه تذكرة سفر لاستلام جائزة نوبل في العاصمة السويدية ستوكهولم.

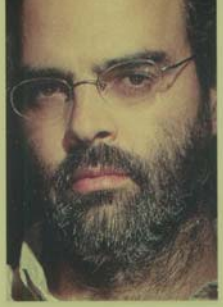

غونزالو تافاريس

السيد فالسير

كافة السادة في هذه السلسلة يستدعون في الذاكرة شخصيات أدبية بارزة. إذ تمارس تلك الشخصيات أدوارها الروائية، إلى حد ما، في نطاق ما نعتقد أننا نعرفه من معلومات عن تلك القامات الأدبية، والأهم من ذلك ما نعرفه عن كتاباتهم. فالسيد كالفينو بالطبع هو النسخة الأدبية عن كاتب الحكايات الإيطالي إتالو كالفينو؛ أما السيد فالِري ففيه تلميح للشاعر والناقد الفرنسي بول فالِري؛ أما السيد جواروز فهو نسخة ما من الشاعر الأرجنتيني روبرتو جواروز؛ والسيد فالْسِر عاشق العزلة (إذْ قد يلاحظ المرء بأن بيته يقع على مسافة بعيدة من المباني السكنية الأخرى الموجودة على خريطة الحي التي رسمتها كايانو) يمثل روبرت فالْسِر، الكاتب السويسري المأزوم نفسيًا الذي أدمن السير وحيدًا لمسافات طويلة؛ وتعكس قصص السيد كراوس النقمة السياسية واللغوية للكاتب النمساوي كارل كراوس، أما النفس المخمورة للسيد هنري فهي شذرة منبثقة من شخصية الكاتب هنري ميشو الذي ينتمي للسوريالِيين الجدد والذي عكف على تجريب شتى أنواع المخدرات أملًا منه في اكتشاف العوالم الداخلية للإنسان. ورغم ما سقناه من إرهاصات لتشابه شخصيات الحي مع شخصيات أدبية حقيقية، فإن كتب سلسلة "الحي" لا تقتصر على إرسال رسالة مباشرة عن تلك الإرهاصات، ولكنها بدلًا من ذلك تفضي بنا إلى مآلات واحتمالات مختلفة -منها الشخصي ومنها الفلسفي- الناتجة عن المعرفة الأساسية بهؤلاء الكتّاب الذين شكّلوا مصدر إلهام لتافاريس.

- فيليب غراهام

ISBN
9 789921 712056

دار الخان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

@DarAlkhan_kw Info@daralkhan.com